٨- جولة رمضانية

المسؤولية همٌ، وكل مسؤول راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته، والويل للغافل، أليست المسؤولية أمانة، ألم يقل الخالق عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.

وإني أتذكر أنه في شهر رمضان المبارك من عام ١٤١٢هـ التقيت في مكة المكرمة بأخ متفرغ للدعوة والإرشاد، وجرى معه حديث حول مسؤوليته، وكيف يؤدي العمل وما هي المناطق التي يزورها؟ وقد عَرَّفني بهذا الرجل

أخ كريم من أبناء العم يعمل في حقل التدريس تربطني به رابطة أقوى من رابطة القرابة، وهي المحبة في الله، إنه الصديق العزيز، والوفي الكريم ابن العم: ثنيان بن عبدالله الثنيان.

وقد أطنب الرجل وابن العمّ في الحديث عن قومٍ عضهم الفقر بنابه، وجللهم الجهل بسواده، وهم على مقربة من بيت الله الحرام.

وقد راعني قولهم وساءني حديثهم وأهمني وصفهم، كيف ونحن قد جئنا إلى هذا المكان الطاهر نبحث عن الخير، ونتحسس الأجر وننشد الآخرة. ولهذا قلت للأخوين: ليس من رأى كمن سمع. ولابد من الزيارة لنشاهد

ونرى فلعلنا نسهم في خدمة القوم، وبذل الخير لهم.

واتصلت هاتفياً بمدير التعليم في مكة المكرمة آنذاك، الأخ الكريم: سليمان الزايدي. وحدثته بما سمعت واتفقت معه على الزيارة سوياً، وكان المكان يبعد عن مكة المكرمة إلى الجنوب الغربي قرابة ثمانين كيلاً.

وقلنا: خير البر عاجله، وكانت الرحلة في اليوم الثالث من العشر الأواخر من شهر رمضان الكريم لعام ١٤١٢هـ، وانطلقنا نحن الخمسة (وكيل الوزارة، مدير التعليم، المعلم ابن العم، الداعية، السائق).

وكان الطريق ترابياً غير معبد، ولهذا طال الوقت ووصلناهم قبيل صلاة الظهر، وتجولنا في ذلك الوادي القفر، ورأينا قوماً متناثرين وشاهدنا أعراباً مشتتين ورثينا لحالهم، وبكينا لوضعهم، فهذه الأسرة في خيمة، والثانية في بيت شعرٍ، والثالثة في صندقة، وهكذا.

ونزلنا من السيارة لنشاهد تلك الخيمة البالية ووجدنا بداخلها امرأة تجلس على فراش ممزق وبين يديها تميرات في إناء بالٍ وعلى يمينها كيس به أربعة أكيال من الأرز تقريباً، وحولها طفل صغير أسرع إليها مذعوراً من القوم الذين وقفوا عليهم فجأة.

إنها صورة ظلت باقيـة في الذاكرة لم تمحها الأيام، ولم تغب عن الخيال، وقـد تذكرت قول الرصافي في مثل هذه الصورة[١]:

لقد جثَمتْ فوقَ التُّراب وحولها
صغـير لهـا يرنو[٢] بعـيني مُيـتمٍّ
تراه وما إن جاوز الخـمسَ عمرُهُ
يدير لحـاظَ اليـافعِ المُتـفـهم[٣]
بكى حولها جُوعـاً فغذته بالبكا
وليس البـكا إلا تَعِلَّة مُـعْـدم[٤]

---

(١) ديوان الرصافي، ص ٤٠.

(٢) يرنو: ينظر.

(٣) اليافع: الذي ترعرع وناهز البلوغ.

(٤) التعلة: ما يتعلل به من طعـام وغيره، وتعلل بالشيئ تلهى به. والمراد أنه يبكي مرة بعد أخرى. المعدم: الفقير.

وأكبرُ ما يدعو القلوب إلى الأسى
بُكاءُ يتيمٍ جائع حولَ أيمِ[١]
وقَفْتُ وقد شاهدتُ ذلك منهما
لمريم أبكي رحمةً وابن مريم
وقفتُ لديها والأسى في عيونها
يُكلمني عنها ولمّا تَتكلم
وساءلتهُا عنها وعنه فأجهشت
بُكاءً وقالت: أيها الدمع ترجمِ
ولما تناهت في البُكاء تضاحكت
من اليأس ضِحك الهازئ المتُهكم
ولكن دموعَ العين أثناءَ ضِحكِها
هواطلُ مهما يسجم الضحك تسجم[٢]

(١) الأيم: هي التي فقد زوجها. (٢) سجم الدمع: سال.

فقد جمعت ثغراً من الضحك مُفْعماً
إلى محجر باك من الدمع مُفعم[١]
فتُذري دموعـاً كالجُمان تناثرت
وتضحك عن مثل الجُمان المنُظَّم
فلم أر عـيناً قبلهـا سالَ دمـعُهـا
بُكاء وفـيـهـا نظرةُ المـتـبـسمِ
فقلت وفي قلبي من الوجد رعشةٌ
أمـجنونةٌ يـا رب فـارحم وسلِّمِ

وبعد هذه النظرة لتلك المرأة وخيمـتها تجولنا في الموقع واسـتمـعنا لأحـاديث القوم، وعـرفنا مطالبهم، وقـابلنا رجلاً كهلاً، ودار مـعه الحوار التالي:

(١) مفعمًا: مملوءًا. المحجر: مادار بالعين.

ما اسمك: خضر.

كم سنك: قرابة الثمانين.

كم لك من الأبناء: ولدٌ وابنتان.

ماذا تعمل: أرعى الأغنام، وأقتات من ورائها.

ألا يساعدك ابنك: ضحك وقهقه.

لماذا تضحك: إنه يعيش أفراحه هذه الأيام.

وما هو الفرح: إنه متزوج قبل شهر رمضان بثلاث ليالٍ.

والصيام: قال الكهل: إنه لا يصوم.

ولماذا:؟

قال: لأنه متزوج، وقلنا له دع الصيام واستمتع بالزواج.

وكان الرجل يتحدث على السليقة، والفطرة وكأن الأمر طبيعي.

ولهذا أنكرنا عليه ذلك التصرف، وعلمناه أن ذلك لا يجوز، ويحرم فعل ذلك العمل.

هذه ثقافة القوم، خرافات، وخزعبلات واعتقادات باطلة، فلديهم مكان يسمونه (المحبا) يتبركون به، وقالوا عن هذا المكان: إن امرأة أنجبت طفلاً وقد حبى الطفل فور ولادته

ولهذا اعتقدوا في المكان، وصاروا يتبركون به وقالوا: إنه يوجد مكان آخر يتبركون به (هو قبر مهدية) ويرمون حوله بعض النقود.

جهلٌ وفقر، وسوءٌ وبلاء، وقد تألمنا كثيراً، وكتبنا تقريراً عن وضعهم، ورفعنا للجهات الحكومية المختلفة، وأحمد الله فقد توالى الخير عليهم، فحين أخبرت معالي وزير المعارف آنذاك الدكتور / عبدالعزيز الخويطر. وجهني على الفور أن نفتتح لديهم فوراً مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، وكان الهدف محاربة الجهل وربطهم بالعلم الشرعي، وفوق ذلك أن يستفيدوا من المكافآت التي تصرف لطلاب هذه

المدارس حيث إن الوزارة تصرف لطلاب مدارس تحفيظ القرآن الكريم الإبتدائية مئتين وخمسين ريالاً، والمتوسطة خمس مائة ريال والثانوية ست مائة ريال.

وفي صيف ذلك العام أقامت الوزارة لديهم حملة لمحو الأمية، ثم أتبعتها بحملات أخرى كما قابلتُ وزير الزراعة والمياه آنذاك د.عبدالرحمن بن عبدالعزيز آل الشيخ، وحدثته عن وضعهم وأمر على الفور بتوفير مياه الشرب لهم وحفر آبار لسقياهم، كما أن وزارة العمل والشؤون الاجتماعية أسرعت إليهم وأحسب أنها قامت بالواجب.

والأهم من ذلك كله أن خادم الحرمين الشريفين ـ حفظه الله ـ اعتمد مبلغاً مالياً كبيراً لإقامة مساكن لهم وبالفعل نفذ المشروع.

وبذل الأخ الكريم والمسؤول الذي حفظ الأمانة وأخلص للرسالة - وما أسعد التعليم بأمثاله، إنه الأخ سليمان الزايدي مدير التعليم بمكة المكرمة - الجهود الخيرة، فاتصل برجال المال وأهل الخير وحدثهم عن وضعهم ولهذا تسابق الناس لتقديم الدعم والمساعدة، أجزل الله لهم الأجر ومنحهم الثواب.

إن التعليم - ولله الحمد- يزدان برجال من أمثال الأخ الزايدي بارك الله فيهم، ونفع بهم.